إنجيل متى ٨: ١-٩: ٣٨

المعجزات

تأليف: تومي ساوث

« ... ولما صار المساء، قدموا إليه مجانين كثيرين. فأخرج الأرواح بكلمة وجميع المرضى شفاهم، لكي يتم ما قيل بإشعياء النبي القائل: هو أخذ أسقامنا وحمل أمراضنا...

وكان يسوع يطوف المدن كلها والقرى يعلم في مجامعها، ويكرز ببشارة الملكوت، ويشفي كل مرض وكل ضعف في الشعب. ولما رأى الجموع، تحنن عليهم، إذ كانوا منزعجين ومنطرحين كغنم لا راعي لها...» (متى ٨: ١-٩: ٣٨).

كلما تقدمنا في دراسة هذا الإنجيل، يكشف لنا متى هوية يسوع أكثر فأكثر. تخبرنا الأصحاحات من ١ إلى ٤ عن ميلاده، ومعموديته، وتجاربه التي تظهر انه هو المسيا ملك اليهود. والأصحاحات من ٥ إلى ٧ تحتوي على الموعظة على الجبل، مباديء الحياة التي يجب أن يعيش الناس بها في ملكوته، تكلم ليس كمن أُرْسِلَ بل كما كان من فم الله نفسه.

الأصحاحين ٨ و٩ هما أساساً مجموعة من الأعمال المعجزية التي تظهر قوة الملك. من بين عشرين معجزة التي وردت في إنجيل متى، نجد عشرة منها في هذين الأصحاحين. في هذا الوقت من خدمة يسوع، بدأت يتبعه جموع غفيرة، وعلى ما يبدو لأنهم قد رأوه يصنع معجزات (متى ٨: ١٨).

من السخرية أن نجد كثيرين لم يتبعوا يسوع اليوم بسبب المعجزات التي صنعها. الذين لا يريدون أن يقبلوا حقيقة المعجزات يعتبرون هذا السجل كجزء من « أساطير يسوع ». يستخلصون ان مثل هذه السجلات لا يمكن تصديقها، فيرفضون يسوع. كلما تقدمت ثقافتنا تكنولجياً، كلما صعب حتى على المؤمنين أن يؤمنوا بالمعجزات.

> في السابق، كانت المعجزات تعتبر كدليل قاطع للتدخل الإلهي. كان المسيحيون يستجيبون إلى معارضيهم ومضطهديهم بالإشارة إلى المعجزات التي صنعها يسوع وأتباعه. كانت المعجزات بمثابة ختم تصديق الله. كانت نوع من الضمان، لكي يرى الجميع دعم الله. ولكن اليوم نجد كثير من الناس غير متأكدون في أي جانب توجد قصص المعجزات. يرونها كعائق عوضاً عن مصدر قوة. على الأقل، قد تحولت من كونها أساس الإيمان إلى الإيمان بها. وبالأسوأ، يجب الاعتذار بسببها. يبدو ان المعجزات تنتمي إلى عالم الأساطير والخيالات. لا تبدو ان لها مكاناً في عالم تكنلوجيا الكمبيوتر، وزرع أعضاء الجسم، ومكوكات الفضاء. عوضاً عن كونها أساس للإيمان، يبدو انها أصبحت صليب يجب على المؤمن ان يحمله. (مقتبس من كولين براون).

جزء من المشكلة في وجهة النظر هذه عن المعجزات هو سوء فهم ماذا كانت معجزات يسوع حقاً والسبب منها. إذا كان الأمر هكذا، نريد أن نستخدم الأصحاحين الثامن والتاسع من إنجيل متى لننظر بطريقة أخرى إلى المعجزات في خدمة يسوع التبشيرية لكي نرى ما إذا كانت المعجزات (١) قابلة للتصديق أم لا (٢) ذات معاني أم لا.

ما هي المعجزة؟

ما الذي نتحدث عنه بالضبط عندما نستخدم المصطلح « معجزة »؟ يأتي أكثر أرتباك عن هذا الموضوع من الاستخدام غير الدقيق للكلمة نفسها.

بالمفهوم الواسع، تستخدم الكلمة « معجزة » اليوم لوصف أي شيء مذهل، أو عجيب، أو فوق العادي. بهذا المفهوم، نتحدث عن « معجزة الولادة » و« معجزة رحلة الفضاء ». أستخدمت الكلمة « معجزة » بالتكرار أيضاً لوصف تزامن غير محتمل (« انها معجزة، إذ تقابلنا! »). كان من النادر لكاتب الروايا الكبير والشاعر توماس هاردي ان يستخدم الهاتف (حديث الاكتشاف في أيامه) لأنه كان يعتبره « معجزة غريبة ». ولكن يمكن تفسير كل ما سبق ذكره تماما حسب وقائع أو مصادفات طبيعية، ولكنها ليست أقل أعجوبة بسبب ذلك!

وبالمفهوم التكنيكي الضيق، « المعجزة » هي الحدث الذي يتخطى أو يوقف الوقائع والمصادفات الطبيعية. بهذا المفهوم ، تكون « المعجزة » قابلة للتفسير فقط من وجهة نظر تدخل فوق الطبيعي. تفسير سي. لويس القياسي لـ « معجزة » هو « تدخل في الطبيعة بقوة فوق الطبيعية ». يبدو ان هذه هي أنواع الأحداث الموضحة في الأصحاحين الثامن والتاسع من إنجيل متى: الشفاء الفوري للبرص، انتهار الحمى باللمس فقط، السكون الحالي للعاصفة بمجرد أمر من يسوع، وشفاء المجانين، وإقامة الفتاة التي ماتت، إلخ. هذه كلها « معجزات » بالمفهوم الدقيق، يمكن تفسيرها فقط على أساس التدخل فوق الطبيعي.

يحدث بعض من الارتباك في موضوع المعجزات في كلا من خدمة يسوع وأماكن أخرى في الكتاب المقدس، من الحقيقة ان الأسفار المقدسة لا تعطي تعريفاً لـ « معجزة ». في نظر كُتّاب الأسفار المقدسة، الله هو المسيطر على كل شيء – عمل الكون يوماً فيوم، أمور الناس وأمور الأمم، ونشاطات أخرى التي نصفها كـ « تقدير إلهي ». بما ان المعجزات هي نوع آخر من نشاط الله في عالمه، يستخدم الكتاب المقدس صيغ مختلفة مثل: « عجائب »، « آيات » و« أعمال عظيمة » ليصف ما نسميها نحن بالـ « معجزات ». ولكن عندما نتحدث عن « معجزات » يسوع، فمن الواضح اننا نتحدث عن نوع خاص من العمل الإلهي في قسم واحد بمفرده. وإلا فلا يكون هناك شيء غير عادي عن الأعمال التي قام بها يسوع. اننا لا نتحدث فقط عن « أشياء عجيبة »، ولكن عن أشياء يمكن تفسيرها على أساس التدخل الإلهي فقط.

هل من المعقول أن تؤمن بان يسوع صنع معجزات؟

الإجابة بـ « نعم » على السؤال أعلاه، يعرض المؤمن تلقائياً إلى تهمة اللاعقلانية وغير العلمية. بما ان هذا هو رد الفعل العام للإيمان بالمعجزات، يجب ان نفحص هذه التهمة عن كثب.

العلم شيء رائع – جداً بحيث عادة ما يترك فينا انطباعاً أكثر مما ينبغي حتى لا ندرك قصوره. يعطي م. سكوت پاك مثال وثيق الصلة بالموضوع، إذ كتب:

> عندما كان أولادنا صغاراً كنا مباركين بطبيب من أفضل أطباء الأطفال، لطيف ومخلص {في عمله} مثقف جداً. عندما زرناه بعد شهر من ولادة طفلنا البكر، أوصانا بان نبدأ تغذيته بأطعمة قوية على نحو فوري تقريباً، لأن مثل هذا التزويد ضروري للأطفال الرضع. وبعد سنة، عندما زرناه بعد شهر من ولادة ابنتنا، وجهنا أن نؤخر قدر المستطاع ولا نغذيها بطعام قوي حتى لا نحرمها من الغذاء الكامل المتوفر في لبن الأم. إن موقف الـ « علم » قد تغير! عندما كنت طالباً في كلية الطب، علمونا أن العلاج الأساسي لمرض التهاب الردب هو الطعام الخفيف. وأما الآن، يتم تعليم طلاب الطب بان العلاج الأساسي هو الطعام الصلب. علمتني مثل هذه الخبرات أنه ما يقدم اليوم كحقيقة علمية هي ببساطة ما يؤمن به بعض العلماء في الوقت الحالي. قد اعتدنا ان نعتبر العلم كحقيقة مطلقة. ان المعرفة العلمية هي بالحقيقة أفضل تقدير تقريبي متاح للحق في رأي أغلب العلماء الذي يعملون في تخصص معين. الحق هو شيء لا نملكه، وإنما هو هدف نسعى إليه بالأمل.

بالإضافة إلى حقيقة ان العلم كثيراً ما يكون أقل دقة مما نراه، ينبغي ان نتذكر ان العلم مبني على الملاحظة، أي على ما يحدث عادة.

لن يمكن للخبرة أن تجد إجابة للسؤال عما إذا يمكن حدوث المعجزات. لاحظ الأسباب الثلاثة لهذا:

أولاً: تعتمد الخبرة على حواسنا، وحواسنا يخطيء. كم مرة ظننت فيها انك سمعت أو رأيت شيئاً واتضح في ما بعد انه ليس ما سمعته أو رأيته أبداً؟ هذه خبرة إنسانية عامة. أتذكر انني أوشكت على إرتكاب حادث كان سيقتلني وأبي عند تقاطع سكة حديدية؛ لأنني نظرت على طول السكة الحديدية ولم أرى شيئاً فتقدمت بالسيارة لأعبر الطريق حتى صاح أبي منزراً بالخطر. قد تبين انني لم أتطلع على طول السكة الحديدية كما ظننت وإنما على المرآة الجانبية لسيارة الشحن التي كنا فيها. كان ما رأيته هو سكة حديدية خالية عكس الإتجاه الذي كان يأتي منه القطار!

ثانياً: إن لم يميل الشخص إلى التصديق، فانه يستخلص ببساطة ان خبرته كانت نوع من وهم. إذا كنا لا نرغب نصدق عيوننا، فاننا لن نصدقها!

ثالثاً: لا تستطيع الخبرة أن تبين ما إذا كان الشيء ممكناً أم لا. ذلك أبعد من قدرتنا حتى نقرر بالإدراك الحسي. (هذا هو الحوار الذي قدمه س. لويس).

كمثال لعدم عصمة الخبرة في تقرير ما هو ممكن، سرد الفيلسوف جون لوك قصة زيارة سفير هولندي إلى ملك سيام في القرن السابع عشر. حاول السفير الهولندي أن يصف للملك شيء لم يتم اختباره بعد – ألا وهو الثلج. بما ان الملك لم يرى ثلجاً من قبل، حيث لم تكن هناك ثلاجات ولم يخرج قط من البيئة الاستوائية، فقد رفض ان يصدق بان السفير قد قال له الحق. في خبرته كلها، لم يخطر على باله ان يكون هناك شيء مثل «ثلج». قد نتأكد تأكيد جازم وعلى أساس «دليل علمي»، عما هو ممكن وما هو غير ممكن – ونخطيء كما أخطأ ملك سيام.

بالإضافة إلى هذا، لا يوجد شيء اسمه «مستحيل» أو غير محتمل بخصوص المعجزات إذا أُدخل الله في الصورة. خلق الله هذا الكون كما يقولَ الكتاب المقدس، إذاً يمكنه التدخل فيه إذا ما شاء. لهذا السبب عينه، تشير معجزات يسوع المدونة في الأصحاحين الثامن والتاسع من إنجيل متى إلى هويته الغير قابل للشك كابن الله القدوس. من ذا غير الله أو ممثله الفريد يستطيع ان يفعل ما فعله؟ تكون المعجزات «مستحيلة» فقط للشخص الذي يؤمن بكون مغلق، أي الكون الذي يعمل «بقوانين» غير قابلة للتغيير، الذي لا خالق لها، لا بداية ولا نهاية. مثل هذا الكون يصعب تصوره. لا بد للمرء ان يغلق ذهنه لكي يؤمن بكون مغلق.

لماذا صنع يسوع المعجزات؟

بالتدقيق في الأصحاحين الثامن والتاسع من إنجيل متى، تكشف لنا ثلاثة أسباب على الأقل التي جعلت يسوع يصنع المعجزات:[1]

صنع يسوع المعجزات لكي يكشف لنا مزيداً عن هويته. بعد ما شفى يسوع حماة بطرس من الحمى، بالإضافة إلى كثيرين آخرين في ذلك المساء، يقول متى ٨: ١٧ بان هذا قد تم «لكي يتم ما قيل بإشعياء النبي القائل: هو أخذ أسقامنا وحمل أمراضنا» (أنظر إشعياء ٥٣: ٤). من يستطيع ان يفعل مثل هذه الأعمال غير الله أو مسيا إسرائيل الموعود؟ بعد انتهار العاصفة، تساءل التلاميذ: «أي إنسان هذا؟ فإن الرياح والبحر جميعاً تطيعه؟» (متى ٨: ٢٧)، هذا هو السؤال الحاسم! أي إنسان هذا؟ لا بد أن ندرك حقيقة مهمة بان معجزات يسوع لم تكن «عمل دال على الجسارة» لكي تجذب الانتباه، وإنما جزء من كشف هوية يسوع. انها تساعد على تفسير من هو.

صُنِعَت لتثبت سلطانه على مغفرة الخطايا

[1] هذا لا يعني انه ليس هناك أسباب أخرى لصنع المعجزات، ولكن هذه الأسباب الثلاثة تجلب الاتباه في الاصحاحين الثامن والتاسع من إنجيل متى.

والنصر على إبليس. عندما نطق يسوع بغفران الخطايا للمفلوج، اعتبره الواقفون هناك انه تجديف. فعلم يسوع أفكارهم، ولكي يثبت سلطانه على غفران الخطايا، حينئذ أمر المفلوج ان يقوم ويسير، وجعله قادراً أن يفعل ذلك (متى ٩: ١-٨). وفي ما بعد في متى ١٢: ٢٨، صرح يسوع قائلاً: «ولكن إن كنت أنا بروح الله أخرج الشياطين، فقد أقبل عليكم ملكوت الله». لم يكن هناك شك في ان يسوع هو الذي يأتي بذلك الملكوت. له سلطان مطلق من الله، الذي لا يستطيع اعوان إبليس مقاومته.

صُنعَت لتظهر مدى رآفته. المعجزات التي وردت في الأصحاحين الثامن والتاسع من إنجيل متى لا تظهر هوية يسوع فحسب، بل أيضاً طبيعته الرؤوفة، لأن متى يكشف انه شفى المنبوذين مراراً . شفى عبداً (متى ٨: ٥-١٣)، ومجنونان (متى ٨: ٢٨-٣٢)، ومفلوجاً (متى ٩: ٢-٧)، وامرأة نازفة دم (متى ٩: ٢٠-٢٢)، وإنسان أخرس مجنون (متى ٩: ٣٢ و٣٣) كلهم نالوا منه قوة الشفاء. كان يعتبر كل واحد من هؤلاء الناس نجس في المجتمع اليهودي لأسباب مختلفة. لا يتعامل معهم الكثير من الناس. ولكن يسوع لم يعرف عنهم فحسب، بل شفاهم. وخاصة لقاءه مع الأبرص في متى ٨: ٢-٤. الجدير بالملاحظة هو انه قال متى بان يسوع «لمسه»! لم يرغب أحد في لمس إنسان أبرص خوفاً من ان يصاب بالمرض نفسه، وبكل تأكيد خوفاً من انتقال نجاسته إليه. ولكن يسوع لمسه! قال وارن ويرسب: «عندما لمس يسوع الأبرص، أصبح بموجب ذلك دنساً، ولكنه عبر أيضاً عن سلامته». ما أعظم هذا الدرس! يوجد الكثير من «المنبوذين» في مجتمعنا، ولكننا لا نستطيع ان نظهر لهم سلامة المسيح دون ان «نلمسهم» جسدياً بطريقة ما. أليس هذا ما فعله يسوع تماماً على الصليب «لمس نجاستنا»؟ ولكن في الوقت نفسه عبر لنا عن سلامته. «لأنه جعل الذي لم يعرف خطية، خطية لأجلنا لنصير نحن بر الله فيه» (٢ كور ٥: ٢١). إن كان علينا ان نكون أتباع مخلصين للمسيح، ينبغي ان نرغب في لمس الآخرين لكي نعبر عن محبة المسيح وقوة شفاءه لحياتهم.

الخلاصة

لم يجري يسوع المعجزات لكي يهدي الناس. ولا نجد هذه الفكرة في الأصحاحين الثامن والتاسع من إنجيل متى ولا في أي مكان آخر من الأسفار المقدسة. إن كان ذاك هو قصده، فلنعتبره مخفقاً يائساً! شهد معظم أعداءه معجزاته المذهلة، ومع ذلك استمروا في عدم الإيمان. ليست المعجزات هي التي تهدينا، بل بشارة الملكوت. إن كنت ترغب في الإيمان بهوية يسوع وبقوة عمله الخلاصي على الصليب وبقيامته، يمكنك ان تهتدي. ولكن إن لم ترغب في الإيمان بهذه الرسالة، التي هي قلب الإنجيل نفسه، فإن كل معجزات العالم لا تغير قلبك.

تطبيق الأسفار المقدسة في الحياة

شباب

كتب توماس جفرسون[٢] وثيقة إعلان الاستقلال عندما كان يبلغ من العمر ٣٣ سنة. وعندما كان جورج واشنطون[٣] في الرابع والأربعين من عمره قاد جيش المستعمرات {التي تشكلت منها في ما بعد الولايات المتحدة الأمريكية}. وكان پاتريك هنري في السابع والعشرين من عمره عندما نال شهرته، وكان الكسندر هميلتون يظلل ما كان سيتأثر في الموارد المالية للولايات المتحدة بينما كان عمره ١٩ سنة، أي لم يبلغ عمر التصويت بعد.

[٢] توماس جفرسون: الرئيس الثالث للولايات المتحدة الأمريكية. ولد في سنة ١٧٤٣. كانت فترة رئاسته ١٨٠١ إلى ١٨٠٩ . وهو الذي وضع بصفة رئيسية وثيقة إعلان الاستقلال. توفي سنة ١٨٢٦.
[٣] أنظر خروج ١٦: ٥ و١٩

جميع الحقوق محفوظة ٢٠٠٧